عن إيجاز الحذف في القرآن الكريم

للدكتور : محمد أحمد الحوفى

عن ايجاز الحذف فى القرآن الكريم

للدكتور محمد احمد الحوفى

١ ــ خير ما أقدم به بحثى هذا أن أذكر نفسى بما استنه كثير من أساتذتنا القدامى ، اذ كانوا يختلفون ويستدرك بعضهم على بعض ، ولكن كثيرا منهم كانوا يحرصون على عفة ألسنتهم وأقلامهم ، فلا يزيدون على مثل قولهم : هذه اللفظة أثبتها فلان ، وأنكرها فلان ، أو لم يعرفها فلان ، أو خلافا لفلان ، وما أشبه هذا مما لا يتعدى الى الوصف بجهل أو غباء أو حمق أو ضلال . ومن الأمثلة على هذا السنن الطيب أن أبا حاتم روى أن الأصمعى قرأ على أبى عمرو بن العلاء بيتا للحطيئة هو :

وغررتنى وزعمت أنسك لابن فى الصيف تامر

هكذا :

وغررتنى وزعمت أنسك لاتنى بالضيف تأمر

أى لا تتوانى عن ضيفك بتعجيل القرى اليه ، فقال له أبو عمرو : أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة .

وقال القاضى جابر بن هبة الله : قرأت على الحريرى مقاماته ، ومنها قوله :

يا أهل ذا المغنى وقيتم شرا ولا لقيتم ما بقينم ضرا

قد دفع الليل الذى اكفهرا الى ذراكم شعثا مغبرا

فقرأت البيت الثانى : سغبا معترا .

ففكر الحريرى ثم قال : والله لقد أجدت فى التصحيف ، وانه لأجود، فرب شَعِثٍ مُغَبَّر غير محتاج ، ولكن السَّغِب المُعَتَّر محتاج ، ولولا أنى كتبت خطى الى هذا اليوم على سبع مئة نسخة قرئت علىَّ لغيرته كما قلت .

ومن هذا أيضا أن عبد الله بن عمر سئل : كم اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : أربعا ، احداهن فى رجب .

وكانت السيدة عائشة تسمع ، فقالت : يرحم الله أبا عبد الرحمن ، ما اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو معه ، وما اعتمر فى رجب قط (١) .

فلنذكر علماءنا السابقين بالثناء والتقدير ، سواء وافقناهم أو خالفناهم ، فقد نهضوا بواجبهم العلمى خير نهوض ، ومهدوا لنا السبيل ، وذللوا كثيرا من الصعاب .

٢ ــ أما الحذف الذى سأعرض ضربين اثنين منه ، فهو حذف كلمة أو جملة أو جمل ، اعتمادا على أن فى الكلام المذكور ما يدل على المحذوف لفظا أو سياقا ، فلا خفاء فى معرفة المحذوف ، ولا اخلال بالفهم ، ولهذا اشترطوا أن يكون فيما أبقى دليل على ما ألقى (٢) .

---

(١) الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشى ١٢٩ وصحيح مسلم بشرح النووى ٨ / ٢٣٧ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ١١١ .

والغرض من هذا الحذف اثارة انتباه المخاطب وتحريك شوقه الى إدراك المعنى ، فيعظم فى نفسه شأنه حينما يدركه ، كما أن يشعر بالرضا حينما يستنبط بنفسه ما حذف من الكلام . هذا الى ما فى الحذف من تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل ، مع الوفاء بالمعنى .

(اولا)

حذف خبر المبتدا

الأصل فى خبرا المبتدأ ألا يحذف ، لأن المبتدأ والخبر معا يؤديان المعنى المراد ، وهما متصلان مرتبطان ، فاذا كان الخبر جملة اسمية أو فعلية فلا بد من اشتمالها على رابط يعود الى المبتدأ ويصله بالخبر .

مثال الجملة الاسمية قوله تعالى : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٣) .

ومثال الجملة الفعلية قوله سبحانه : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » (٤) .

وانه ليسترعى الانتباه أن أسلوب القرآن امتاز فيما امتاز به بحذف خبر المبتدأ فى كثير من الآيات .

ولقد اختلف المفسرون فى هذا الحذف على التفصيل الذى سأعرضه وأعقب عليه ، متدرجا مع المفسرين تدرجا زمانيا مرتبا على سنوات الوفاة.

(الآية الاولى)

قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا

---

(٣) سورة البقرة ٣٩ .
(٤) سورة المؤمنون ٧٥ .

وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا • الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (٥) •

فأين خبر الذين ؟

١ ــ ذهب الطبرى (٣١٠ هـ) الى أن الله لا يحب المختال الفخور الذى يبخل ، ويأمر الناس بالبخل ، وقال ان (الذين) يحتمل أن يكون فى موضع رفع ردا على ما فى قو له (فخورا) من ذم ، ويحتمل أن يكون نصبا على النعت لمن (٦) •

٢ ــ وذهب الزمخشرى (٥٣٨ هـ) الى أن (الذين) بدل من قوله (من كان مختالا فخورا) أو نصب على الذم ، أو رفع على الذم ، ويجوز أن تكون (الذين) مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل أحقاء بكل ملامة (٧) •

٣ ــ وذهب القرطبى (٦٧١ هـ) الى أن (الذين) فى موضع نصب على البدل من (من كان مختالا فخورا) ولا يكون صفة ، لأن (من) و (ما) لا يوصفان ولا يوصف بهما ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، فيعطف عليه قوله تعالى « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس » ويجوز أن يكون ابتداء والخبر محذوف ، أى الذين يبخلون لهم كذا ، أو يكون الخبر « ان الله لا يظلم مثقال ذرة » ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أعنى (٨) •

---

(٥) سورة النساء ٣٦ ــ ٣٧ .
(٦) تفسير الطبرى ٥ / ٥٤ .
(٧) الكشاف ١ / ٢٦٨ .
(٨) تفسير القرطبى ٥ / ١٩٢ .

٤ ــ أما النيسابورى (٧٢٨ هـ) فلم يذكر شيئا (٩) .

٥ ــ وكذلك ابن كثير (٧٧٤ هـ) (١٠) .

« تعقيـــب »

١ ــ يبدو التكلف فى اعراب (الذين) نعتا لمن أو بدلا من (من) لأن هذا الاعراب قائم على تأويل « من كان مختالا فخورا » بالجمع لينسجم التعبير مع (الذين) .

كما يبدو التكلف فى اعراب (من) مفعولا لفعل ذم محذوف ، لأن الآية السابقة تنص على كراهية الله تعالى للمختال الفخور ، وهذه الكراهية أشد من الذم ، فكيف يستحق المختال الفخور كراهية الله له ، ولا يستحق هذه الكراهية البخيل بنعم الله الذى يأمر غيره بالبخل ، بل يستحق الذم فحســب ؟

هذا الى أن الذوق لا يستريح الى هذا التقدير ، ولا يســتريح الى اعراب (الذين) مفعولا لفعل محذوف تقديره أعنى .

أما اعرابها مبتدأ عطف عليه « والذين ينفقون » ليكون الخبر مؤخرا على هذه الصورة فإنه إبعاد للخبر عن المبتدأ .

٢ ــ فما التقدير الذى يستحق الايثار ؟

لقد ذكر هذا التقدير بعض المفسرين فيما سبق ، وهو أن (الــذين) مبتدأ خبره محذوف .

فاذا أردنا تقديره تقديرا صحيحا كان علينا أن نتدبر ختام الآيــة الكريمة وهو قوله تعالى : « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » وتقدير هذا

---

(٩) تفســير النيسابورى على هامش الطبرى ٥ / ٤٨ .
(١٠) تفســير ابن كيثر ١ / ٤٩٦ .

الخبر يجيء على هذه الصورة : الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله كفار بنعم الله أو مستحقون لعذاب الله ، وقد أعد الله للكفار عذابا مهينا .

ومن هنا يتبين أن التذليل « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » دل على خبر المبتدأ وأغنى عنه .

« الآيـــة الثـــانية »

قال تعالى : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (١١) .

١ ــ ذكر الطبرى أن (الذين) فى موضع جر عطفا على (الكافرين) فى الآية السابقة « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (١٢) .

٢ ــ ولم يتعرض الزمخشرى لموقع (الذين) (١٣) .

٣ ــ وقال القرطبى (٦٧١ هـ) ان (الذين) معطوف على (الذين يبخلون) ، وقيل هو عطف على (الكافرين) فيكون فى موضع خفض(١٤).

٤ ــ وقال النيسابورى (٧٢٨ هـ) ان (الذين) معطوف على (الذين يبخلون) (١٥) .

٥ ــ ولم يتعرض ابن كثير (٧٧٤ هـ) لموقع الذين (١٦) .

---

(١١) سورة النساء ٣٨ .
(١٢) تفسير الطبرى ٥ / ٥٦ .
(١٣) الكشاف ١ / ٢٦٨ .
(١٤) تفسير القرطبى ٥ / ١٩٣ .
(١٥) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٥ / ٤٨ .
(١٦) تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٦ .

« تـــــعقيب »

١ ــ أستبعد اعراب (الذين) فى موضع جر عطفا على (الكافرين) فى الآية السابقة ، لأن الذين ينفقون أموالهم مراءاة للناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ألصق بالكفر من الذين يبخلون بنعم الله ويكتمون خيره وفضله ، فكيف يوصف هؤلاء البخلاء بالكفر ويتوعدهم الله بعقاب الكفار ، ثم يجىء تابعا لهم ومعطوفا عليهم الذين ينفقون مراءاة للناس الجاحدون بوجود الله تعالى المنكرون ليوم القيامة ؟ .

٢ ــ هذه ملاحظة ، والملاحظة الثانية أن (الذين ينفقون) لو كانت معطوفة على (الكافرين) لكان الأولى أن يكون الأسـلوب : وللذين ينفقون أموالهم رئاء الناس .

٣ ــ وأما إعراب (الذين ينفقون) معطوفا على (الذين يبخلون) فإنه لم يحقق شيئا ، لأن الخبر ما زال فى حاجة الى تقدير .

٤ ــ فمـا الوجـه الصحيح ؟

أرى أن خبر (الذين) محذوف دل عليه قوله تعالى « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » أى : الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر عصاة لله ، أو خاضعون للشيطان،أو مستحقون عذاب الله ، ومن يكن الشيطان له قرينا جره الى هذا المصير .

« الآيـــة الثـــالثة »

قال الله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » (١٧) .

اين خـبر الـذين ؟

---

(١٧) سـورة الاعـراف ٤٢ .

١ ــ لم يذكر الطبرى شيئا (١٨) .

٢ ــ ورأى الزمخشرى أن « لا نكلف نفسا الا وسعها » جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب فى اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو فى الوسع ، وهو الأمكان الواسع غير الضيق من الايمان والعمل الصالح (١٩) .

ومعنى هذا أن جملة « أولئك أصحاب الجنة » هى الخبر .

٣ ــ ورأى القرطبى أن « لا نكلف نفسا الا وسعها » كلام معترض، وأن خبر « الذين » هو « أولئك أصحاب الجنة » (٢٠) .

٤ ــ ورأى النيسابورى هذا الرأى ، وزاد عليه أنه يصح أن تكون جملة « لا نكلف نفسا الا وسعها » هى الخبر ، والعائد محذوف تقديره نفسا منهم (٢١) .

٥ ــ ولم يذكر ابن كثير شيئا عن موقع « الذين » (٢٢) .

« تعقيب »

١ ــ خير ما قالوه فى إعراب الآية الكريمة أن « الذين آمنوا » مبتدأ خبره « أولئك أصحاب الجنة » .

ولكن هذا لا يمنع من تقدير خبر محذوف مفهوم من قوله تعالى : « أولئك أصحاب الجنة » تقديره مثلا : ثوابهم عظيم ، فيكون الأسلوب على هذه الصورة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم عظيم ، لا يكلف الله نفسا من العمل الصالح الا ما تطيقه ، أولئك أصحاب الجنة .

---

(١٨) تفسير الطبرى ٨ / ١٣٣ .
(١٩) الكشاف ٢ / ٦٢ .
(٢٠) تفسير القرطبى ٧ / ٢٠٧ .
(٢١) على هامش الطبرى ٨ / ٩٥ .
(٢٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٤ .

ومعنى هذا أن نهاية الآية الكريمة أشارت الى خبر المبتدأ ودلت عليه

« الآيـــــة الرابعـــــة »

قال تعالى . « والذين عملوا السيئات ، ثم تابوا من بعدها وآمنوا، ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (٢٣) .

١ ــ لم يذكر الطبرى ولا الزمخشرى ولا القرطبى ولا النيسابورى ولا ابن كثير شيئا عن موقع « الذين » (٢٤) .

ويبـــدو لى من ختام الآية الكريمة بقوله تعالى : « إن ربك مـــن بعدها لغفور رحيم » ان الخبر محذوف ، تقديره : مغفور لهم ، أو مقبولة توبتهم ، أو ناجون من عقاب الله .

« الآيـــــة الخـــــامسة »

قال سبحانه وتعالى : « والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، انا لا نضيع أجر المصلحين » (٢٥) .

١ ــ لم يعرض الطبرى لاعراب « الذين » (٢٦) .

٢ ــ وذكر الزمخشرى وجهين : أحدهما ان « الـــذين » مرفـــوع بالإبتداء ، وخبره « إنا لا نضيع أجر المصلحين » ، لأن المصلحين فى معنى الذين يمسكون بالكتاب ، كقوله تعالى : « ان الـــذين آمنـــوا وعملوا

---

(٢٣) ســـورة الاعراف ١٥٣ .
(٢٤) تفسير الطبرى ٩ / ٤٩ و الكشاف ٢ / ٩٥ وتفسير القرطبى ٧ / ٢٩٢ وتفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٤٨/٩ وتفسير ابن كثير ٢٤٨/٢
(٢٥) ســـورة الاعراف ١٧٠ .
(٢٦) تفســـير الطبرى ٩ / ٧٤ .

الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (٢٧) .

والوجه الآخر أن « الذين » مجرور بالعطف على « الذين يتقون » فى قوله تعالى : « والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » ويكون قوله تعالى : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » اعتراضا (٢٨) .

٣ ــ ولم يتعرض للاعراب القرطبى ولا النيسابورى ولا ابن كثير(٢٩)

«التعقيب»

١ ــ أستبعد أن يكون « الذين يمسكون بالكتاب » معطوفا على « الذين يتقون » فى الآية السابقة ، لأن الذين يتقون أعم من الذين يمسكون بالكتاب ، ولأن بين المعطوف والمعطوف عليه قوله تعالى : « أفلا تعقلون » ، ثم لأن العطف كان يتعين لو جاءت الآية على هذا النسق : وللذين يمسكون بالكتاب ، ويظهر لى أن قول الزمخشرى (إنا لا نضيع) إعتراض صوابه ان « أفلا تعقلون » هو الإعتراض ، لأن إنا لا نضيع تذييل لا اعتراض .

٢ ــ كذلك أستبعد أن يكون الخبر « انا لا نضيع أجر المصلحين » لانه لا رابط فى هذه الجملة يعود على المبتدأ ، واعرابها خبرا يقتضى تقدير رابط هو (منهم) مثلا ، ولا داعى لإعراب قائم على تقدير ما دام التعبير محتملا لوجه آخر .

٣ ــ فما هذا الوجه ؟

أرى أن قوله تعالى : « إنا لا نضيع أجر المصلحين » تذييل يوحى بالخبر المحذوف ، وأصل التعبير هو : والذين يمسكون بالكتاب ويقيمون

---

(٢٧) سورة الكهف ٣٠ .
(٢٨) الكشاف ٢ / ١٠٢ .
(٢٩) تفسير القرطبى ٧ / ٣١٣ والنيسابورى ٩ / ٦٩ وابن كثير ٢ / ٢٦٠ .

الصلاة ثوابهم عظيم عند الله ، ان الله لا يضيع أجر من يحسنون عملا .

« الآيـــة الســـادسة »

قال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور » (٣٠) .

ما موقع الذين من الاعراب ؟

١ ــ رأى الطبرى أن « الذين » رد على الذين فى قوله تعــالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » قبل هاتين الآيتين (٣١) .

٢ ــ ورأى الزمخشرى أن « الذين » فى محل نصب بدل من قوله تعالى : « من ينصره » أو فى محل جر تابع للذين فى قوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم » (٣٢) .

٣ ــ ونقل القرطبى عن الزجاج أن « الذين » فى محل نصب على البدل من (من) فى قوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره » . وقال غير الزجاج : إنها فى موضع جر على البدل من « الذين » فى قولــه سبحانه : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » (٣٣) .

٤ ــ وذكر النيسابورى انها بدل من قوله تعالى : « الذين أخرجوا » أو بدل من « من ينصره » (٣٤) .

٥ ــ أما ابن كثير فلم يذكر شيئا (٣٥) .

---

(٣٠) ســورة الحج ٤٠ ــ ٤١ .
(٣١) تفســير الطبرى ١٧ / ١٢٦ .
(٣٢) الــكشاف ٣ / ٣٥ .
(٣٣) تفســير القرطبى ١٢ / ٧٢ .
(٣٤) على هــامش الطبرى ١٧ / ٩٣ .
(٣٥) تفســير ابن كثير ٣ / ٢٣٦ .

«تعقيب»

١ ــ أستبعد أن تكون كلمة « الذين » معطوفة على « الذين » فى قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون » أو على « الذين » فى قوله سبحانه : « الذين أخرجوا من ديارهم » أو أن تكون بدلاً من (الذين) فى هذه الآية الأخيرة ، لأن الفصل طويل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وبين البدل والمبدل منه .

٢ ــ وخير من هذا أن تكون بدلا من « مَن » فى قوله تعالى : « من ينصره » كما ذكر الزمخشرى والقرطبى والنيسابورى .

٣ ــ لكننى أفضل أن تكون كلمة الذين مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله تعالى : « ولله عاقبة الامور » فيكون التقدير مثلا : لهم العاقبة، أو لهم النصر ، أو هم الغالبون .

«الآية السابعة»

وهكذا تتسق الفكرة فى قوله تعالى : « الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (٣٦) .

فان الخبر محذوف مفهوم من ختام الآية الكريمة ، والتقدير هو : الذين يجادلون فى آيات الله بغير دليل مبطلون أو محقوقون . أو مطموس على قلوبهم ، بئس الجدال الممقوت هذا ، كذلك يطمس الله على قلوب المتكبرين .

« الآية الثامنة »

وكذلك فى قوله تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتولَّ فان الله هو الغنى الحميد » (٣٧) .

---

(٣٦) سورة غافر ٣٥ .

(٣٧) سورة الحديد ٢٤ .

الخبر محذوف تقديره لا يحيق بخلهم الا بهم ، أو لا يضرون الله شيئا ببخلهم .

« ثانيـــا »

حـــذف مـا بعـد لا النافيـة للمساواة

كثر فى القرآن الكريم نفى المساواة بين شيئين أو أكثر بهذين الأسلوبين : الأول أن تتقدم أداة النفى على الفعل الدال على المساواة ، ويذكر بعده الشيئان أو الأشياء التى لا تتساوى ، كما فى قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » (٣٨) .

وقوله سبحانه : « وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج » (٣٩) .

الثانى أن يتقدم ذكر الشيئين أو الأشياء المراد نفى المساواة بينها ، ويجىء نفى التسوية بعد ذلك ، نحو قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ »(٤٠) .

ونحو قوله سبحانه : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا لا يستوون » (٤١) . لكن فى القرآن الكريم نفيا للمساواة بأسلوب آخر اذ جاءت فيه (لا) النافية مكررة بعد عطف فى ثلاث آيات .

« الآيـــة الاولـــى »

قال تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور،

---

(٣٨) سورة النساء ٩٥ .
(٣٩) سورة فاطر ١٢ .
(٤٠) سورة هود ٢٤ .
(٤١) سورة السجدة ١٨ .

ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، ان الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ، ان أنت الا نذير » (٤٢) .

فنفت (ما) فى الآية الكريمة الأولى المساواة بين اثنين متضادين هما الأعمى والبصير ، سواء أكان المراد بالعمى والبصر معناهما الحقيقى أم المراد معناهما المجازى وهو الكفر والإيمان ، وهذا النفى على الأسلوب المعهود . لكن النفى جاء بعد ذلك بالحرف (لا) فى أسلوب آخر : « ولا الظلمات ولا النور » و « ولا الظل ولا الحرور » و « وما يستوى الأحياء ولا الأموات » . فلماذا جاءت (لا) مكررة بعد الظلمات ، وبعد الظل ، وبعد الأحياء ؟ لقد تتبعت ما ذكره بعض المفسرين ، وآثرت أن أثبته مرتبا ترتيبا زمنيا ، ثم أتأمله ، لعلنى أرجح بعضه ، أو لعلنى أعرض رأيا آخر فيه جدة .

١ ــ ذكر ابن جرير الطبرى (المتوفى ٣١٠ هـ) رأيين :

أولهما أن بعض نحاة البصرة ذهبوا الى أن (لا) تشبه أن تكون زائدة ، لأنك لو قلت : لا يستوى عمرو ولا زيد فى هذا المعنى لم يجز . الا أن تكون (لا) زائدة .

والثانى أن غيرهم قال : اذا لم تدخل (لا) مع الواو فانما لم تدخل اكتفاء بدخولها فى أول الكلام ، فاذا دخلت فانه يراد بالكلام أن كل واحد منهما لا يساوى صاحبه ، فمعنى الكلام اذا أعيدت (لا) مع الواو عند صاحب هذا القول: لا يساوى الأعمى البصير، ولا يساوى البصر الأعمى، فكل واحد منهما لا يساوى صاحبه (٤٣) .

٢ ــ وذكر الزمخشرى (٥٣٨ هـ) أن (لا) لتأكيد معنى النفى(٤٤).

(٤٢) سورة فاطر ١٩ ــ ٢٣ .
(٤٣) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٥ .
(٤٤) الكشاف ٣ / ٢٧٣ .

٣ ــ ونقل القرطبى (٦٧١ هـ) عن الأخفش سعيد أن (لا) زائدة ، والمعنى ولا الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور (٤٥) .

٤ ــ وقال النيسابورى (٧٢٨ هـ) أن (لا) كررت فى الأمثال الأخيرة دون الأول لأن المنافاة بين العمى والبصر ليست ذاتية كما فى سائرها، وقد يكون شخص واحد بصيرا بإحدى العينين أعمى بالأخرى(٤٦).

٥ ــ وذهب أبو حيان الاندلسى (٧٥٤ هـ) الى أن (لا) زائدة لتأكيد النفى ، وحكى عن ابن عطية أن دخولها يفيد التكرار ، كأنه قال : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ، ولا الأموات والأحياء ، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثوانى ، ودل مذكور الكلام على متروكه . ثم رد أبو حيان على هذا الرأى بقوله : وما ذكر غير محتاج الى تقديره ، لأنه اذا نفى استواء الظلمات والنور فأية فائدة فى تقدير نفى استوائهما ثانيا وادعاء محذوفين (٤٧) ؟

٦ ــ أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فانه لم يعرض للحرف (لا) (٤٨) .

٧ ــ وأما الزركشى (٧٩٤ هـ) فانه نقل عن ابن عطية أن (لا) دخلت على نية التكرار ، كما سبق فيما نقله عنه أبو حيان الاندلسى(٤٩) .

٨ ــ ثم كتب فضيلة المرحوم الدكتور عبد الرحمن تاج بحثا مفصلا أثبت فيه أن النفى فى هذه الآيات مسلط على الأفراد نفسها ؛ لأن الظلمات الحقيقية الحسيه متعددة متفاوتة قوة وضعفا وشدة وخفة ، وكذلك

---

(٤٥) تفسير القرطبى ١٤ / ٣٣٩ .
(٤٦) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٢ / ٨٤ .
(٤٧) البحر المحيط ٧ / ٣٠٨ .
(٤٨) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٢ .
(٤٩) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣ / ١٢٣ ، ٤ / ٣٥٧ .

الظلمات المعنوية التى جعلت تلك تمثيلا لها وهى الضلالات ، فهى أنواع متفاوتة أيضا ، وكل من النور الحسى المعهود والمعنوى الذى هو الهداية والرشاد له أفراد متفاوتة قوة وضعفا .

ومثل هذا يقال فى الظل والحرور ، فهما مختلفان حسيا شدة وخفة ، أى أن لكل منهما أفرادا متفاوتة فى ذلك ، وقد قال العلماء ان المقصود بهما فى الآية الإشارة الى المصير الأخروى وما يلقاه الإنسان فيه من الجزاء ، فهما تمثيل للثواب والعقاب وكل من الثواب والعقاب درجات متفاوتة تفاوتا عظيما .

وكذلك الحال فى الأحياء والأموات وما جعل الأحياء والأموات تمثيلا لهم وهم المؤمنون والكفار ، كل منهم ذوو مراتب ودرجات .

واذا كان ذلك كذلك أمكن أن يحمل نفى الاستواء فى كل واحد من هذه المذكورات على أنه نفى استوائه فى نفسه ، أى نفى تساوى أفراده ذاتها ، ويكون هذا أولى وأرجح مما قيل من زيادة (لا) لأنه يحفظ أصالتها ، ويوفر عليها معناها (٥٠) .

«تعقيب»

١ ــ هكذا تبين أن الآراء السابقة تدور فى عدة اتجاهات ، لأن (لا) إما زائدة أو شبه زائدة، وإما لتأكيد النفى، وإما أصيلة والنفى منصب على كل كلمة بعدها ، لأن الظلمات درجات ولأن النور درجات ، واما أصيلة تؤدى معنى مفهوما من السياق، ولكن ما بعدها محذوف دل عليه المذكور.

فأما القول بزيادتها أو شبه زيادتها فإنه مرفوض ، لأن القرآن الكريم وهو ذروة البلاغة أسمى من أن يقع فيه حرف مزيد أو كلمة مقحمة .

فإن قيل ان الزيادة لغرض بلاغى ، كان هذا القول دليلا على الأصالة

(٥٠) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين ٨٣ .

واستبعادا للزيادة لأن الغرض البلاغى لا يتم بغير ما قيل انه مزيد .

وأما القول بأنها لتوكيد النفى فانه مردود بأن هذا التوكيد لم يجىء فى نفى المساواة بين الأعمى والبصير ، فلماذا جاء فى نفى المساواة بين ما بعدهما ؟ ولو أنها مكررة لتوكيد النفى لوافق جميع المفسرين على هذا القول .

وأما الحكم بأنها أصيلة جاءت لنفى المساواة بين ما تدل عليه كل كلمة بعدها من درجات ودركات فاننى أرى أنه لا يلائم الغرض من الآيات الكريمة ، لأنها تمدح الإيمان وترغب فيه وتشوق إليه ، وتذم الكفر وتنفر منه وتحذر من عواقبه بتمثيل حسى لا شك فيه هو أن البصير والأعمى لا يتساويان ، وأن النور والظلام متناقضان ، وأن الظل والحر متضادان ، وأن الحى والميت متباينان ، فكذلك الايمان والكفر .

ومعنى هذا أنه ليس المراد من الآيات الكريمة أن النور درجات وأن الظلام درجات ، ولا أن الظل طبقات وأن الحر طبقات ، ولا أن الأحياء أصناف وأن الموتى أصناف ، لأن هذا معناه أن المؤمنين ذوو درجات وأن الكفار أصحاب دركات ، وهذا حق ، ولكنه لا يفيد فى هذا المقام مقام الترغيب فى الايمان وبيان آثاره الطيبة الحميدة والتنفير من الكفر وتبيان جرائره الخبيثة .

واذا كان المؤمنون أصحاب درجات عالية تناسب ايمانهم بالله وطاعتهم له ، فان الكفار لا يدينون بأنهم أصحاب دركات تناسب كفرهم وأعمالهم، ولو أنهم آمنوا بهذا فان ايمانهم به مقطوع عن التفرقة المحسوسة بين هداية الايمان وضلال الكفر التى مثلتها الآيات الكريمة بأربعة أمثلة لا يمترى أحد فى الاقرار بتباينها .

٢ ــ وكنت قد فكرت طويلا فى هذا الأسلوب ، ثم سنح لى رأى

استرحت اليه ، فلما تتبعت آراء المفسرين وجدت ابن عطية قد أشار الى هذا الرأى (٥١) ، فازددت به اقتناعا ، وهو ــ والله أعلم ــ أن فى الكلام محذوفا دل عليه السياق ، والكلام بغير حذف هو : وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور، ولا الحرور والظل، وما يستوى الأحياء والأموات، ولا الأمواتوالأحياء.

ومن عجب أن رأى ابن عطية ظل مجهولا أو مغمورا هذا الزمان الطويل .

وقد يبدو هنا سؤال هو : اذا كانت المساواة بين الظلمات والنور قد نفيت فلماذا كرر هنا النفى بين النور والظلمات ؟

واذا كان نفى المساواة بين الظل والحرور قد وقع فلماذا كرر هذا النفى بين الحرور والظل ؟

واذا كان نفى المساواة بين الأحياء والأموات قد حدث فلماذا كرر النفى بين الأموات والأحياء ؟

أليس فى النفى الأول ما يغنى عن الثانى ؟

والجواب عن هذا أن المراد بنفى المساواة بين الظلمات والنور كما فى الآية الكريمة هو الدلالة على أن الظلام لا يستطيع أن يتسامى الى النور فى اشراقه وهدايته وجماله ونفعه وارتياح النفوس له وشوقها اليه ، ومعنى هذا أن وجه الشبه مقصور على النور .

أما نفى المساواة المقدر بين النور والظلمات فان المراد منه أن النور لا يمكن أن يهبط الى ما يتصف به الظلام من قتام وتضليل ووحشة ومجلبة للضيق والكآبة والحيرة والمعاطب ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظلام .

---

(٥١) كما ذكر أبو حيان الاندلسى فى رقم (٥) والزركشى فى رقم (٧) .

كذلك لا يمكن أن يهبط الظل الى درك الحر اللافح الخانق الداعى الى الضجر والضيق والسأم والسقم ، فوجه الشبه هنا مقصور على الحر ، ولا يمكن أن يسمو الحر الى مقام الظل البارد المنعش الشارح للصدور الملائم للحياة الطيبة والعمل المثمر ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظل .

وكذلك لا ينزل الحى الى أن يساوى الميت فى فقدانه للحياة وفى مخافة الناس من جثته ومسارعتهم الى دفنه ، فوجه الشبه هنا مقصور على الميت ، ولا يستطيع الميت أن يشبه الحى المتحرك النامى المستمتع بمظاهر الشعور كلها ، أى أن وجه الشبه مقصور على الحى .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان والكفر متباينان أشد التباين ، فلا المؤمنون يشبهون الكفار فى جحودهم لربهم وفى ضلالهم ومعصيتهم لخالقهم وفى غضبه عليهم وفى عقابهم المتوقع ، ولا الكفار يشبهون المؤمنين فى ايمانهم بربهم ، وفى اهتدائهم لطاعته ، وفى رضوانه عليهم ، وفى ثوابهم المأمول .

والغرض من هذا توكيد المخالفة ، وزيادة توضيح المباينة ، كما نقول: ليس الناجح كالراسب ، ولا الراسب كالناجح ، ونحن نريد أن الناجح لا يشبه الراسب فى اخفاقه وحسرته ، وأن الراسب لا يشبه الناجح فى ظفره وبهجته .

والحذف هنا ضرب من البلاغة القرآنية التى تستغنى بالمذكور عن المحذوف المفهوم . وقد يسترعى الانتباه أن الآيات الكريمة نفت مساواة الأدنى للأعلى فى حالتين هما العمى والبصر والظلام والنور ، ونفت مساواة الأعلى للأدنى فى حالتين هما الظل والحرور ، والحياة والموت ، وحينما نقدر المحذوف يتقدم الأدنى تارة ويتقدم الأعلى تارة ، والغرض من التكرير بتقديم الأدنى مرة وتقديم الأعلى مرة توكيد المنافاة وابطال المشابهة على أى وجه من الوجوه ، سواء تقدم الأعلى أم تقدم الأدنى .

ولا شك أن الأسلوب الشائع فى القرآن الكريم وفى غيره يجرى على نفى مشابه الناقص للكامل ، ولكن بعض الآيات الكريمة جاءت لتنفى عن الكامل شبهه بالناقص ، مثل قوله تعالى : « فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم » (٥٢) .

فتحسرت لأن أملها فى أن يكون ما فى بطنها ذكراً أخفق ، وقد نذرته محررا لسدانة المسجد الاقصى ، وعبرت عن حسرتها بأنها وضعت أنثى ، وبأن الذكر فى قوته وجلده على العبادة وقدرته على خدمة البيت ليس كالأنثى فى ضعفها ولينها وقلة احتمالها ، وكان المعهود أن تقول وليست الأنثى كالذكر .

ومثل قوله سبحانه : « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن ، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا » (٥٣) .

جاءت الآية الكريمة على هذا النسق ، ولم تجىء هكذا : ليس أحد من النساء مثلكن .

أى أنكن يا نساء النبى لستن فى شرف مكانتكن وعلاء قدركن ونظرة المسلمين والمسلمات اليكن مثل النسوة الأخريات فى مكانتهن العادية وافتقارهن الى مثل فضلكن وسابقتكن وصلتكن برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك قوله تعالى : «أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون»(٥٤) فقدم الأعلى فى نفى المشابهة ، لأن المراد هل يستوى الله تعالى وهو

---

(٥٢) سورة آل عمران ٣٦ .
(٥٣) سورة الاحزاب ٣٢ .
(٥٤) سورة النحل ١٧ .

الخالق القوى القادر بآلهة تعبدونها وهى مصنوعة مخلوقة عاجزة عن الخلق وعن النفع والضر ؟

وقوله سبحانه : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون » (٥٥) .

ولهذا الأسلوب نظائر فى الشعر القديم ، منها قول المرقش الأكبر :

لسنا كأقوام مطاعمهم كسب الخنى ونهكة المحرم(٥٦)

فنفى عن الأعلين الذين يتعففون فى كسب المال شبههم بالأدنين الذين يسلكون الى كسب المال أى طريق ، وكان الأسلوب الشائع أن يقول : ليس أصحاب الفساد وانتهاك الحرم مثلنا .

ومنها قول معن بن أوس فى شكواه من ابن عمه :

ويسعى اذا أبنى ليهدم صالحى وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

وكان المتوقع أن يقول وليس الذى يهدم كالذى يبنى ، ولكنه أراد بهذا الأسلوب أن الذى يبنى مجد القبيلة يتصف بالنفع والغيرة والاصلاح والايثار والشرف فلا يشبه الذى يهدم مجد القبيلة ، لأنه يتصف بالتخريب والتدمير والحمق والفساد والدمار .

وقول النجاشى فى رده على قصيدة كعب بن جعيل :

جعلتم عليا وأشياعه نظير ابن هند أما تستحونا ؟

فهو يلوم الشاميين لأنهم هبطوا بمكانة على الى منزلة معاوية ، ولم يقل انهم ارتفعوا بمعاوية الى مقام على .

---

(٥٥) سورة السجدة ١٨ .

(٥٦) المفضليات ٢ / ٤٠ الخنى : الفساد . نهكة المحرم : انتهاك الحرم أى لا نهجو الناس ليعطونا .

« الآيـــة الثـــانية »

قال سبحانه وتعالى : « وما يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلا ما تتذكرون » (٥٧) .

فماذا قالوا فى (لا) هنا ؟

١ ــ اكتفى الطبرى بتفسير الآية مكررا الحرف لا (٥٨) .

٢ ــ وصنع الزمخشرى صنيعه (٥٩) .

٣ ــ وكذلك صنع القرطبى (٦٠) .

٤ ــ أما النسائى (٧٠١ هـ) فقال انها زائدة (٦١) .

٥ ــ وأما النيسابورى فلم يذكر شيئا (٦٢) .

٦ ــ وأما أبو حيان الاندلسى فقال انها كررت لتوكيد النفى ، لان جملة الصلة وما عطف عليها طالت (٦٣) .

٧ ــ وأما ابن كثير فلم يذكر شيئا (٦٤) .

٨ ــ وأما أبو السعود (٩٨٢ هـ) فقال مثل أبى حيان ، وزاد عليه أن المقصود نفى مساواة المسيء للمحسن فيما له من الفضـــل والكرامة ، وقال : هذا الرأى الثانى هو الصواب ، لأن (لا)

---

(٥٧) ســورة غــافر ٥٨ .
(٥٨) تفســير الطبرى ٢٤ / ٥١ .
(٥٩) الــكشاف ٣ / ٣٧٥ .
(٦٠) تفســير القرطبى ١٥ / ٣٢٥ .
(٦١) تفســير النسفى ٢٤ / ٢٥٧ .
(٦٢) على هامش الطبرى ٢٤ / ٥٢ .
(٦٣) البحر المحيط ٧ / ٤٧٢ .
(٦٤) تفســير ابن كثير ٤ / ٨٥ .

هنا أصيلة دلت على أن المسيء لا يساوى المحسن بعد أن فهم من الآية نفسها أن المحسن لا يساوى المسيء ، لأن التقدير فى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولا الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات (٦٥) .

٩ ــ ثم ذهب فضيلة المرحوم الدكتور عبد الرحمن تاج الى مثـــل رأيه السابق ، وهو أن المراد نفى استواء المـؤمنين الـــذين يعملون الصالحات أنفسهم ، لان أفرادهم كثيرون متفاوتون فى قوة الايمان والعمل الصالح ، ثم ان المقابل الذى هو المسيء فى العقيدة والعمل له أفراد كثيرون أيضا متفاوتون فى درجات هذه الاساءة ، فأريد نفى المساواة فيما بينهم بقوله سبحانـــه « ولا المسيء » . ولا شك أن مجموع هذا وذاك يلزمه انتفاء المساواة بين المحسنين فى العقيدة والعمل والمسيئين فيهما ، فانه اذا ثبت أن النوع الواحد قد انتفت المساواة فيه نفســـه أى انتفى التساوى بين أفراده فانه يلزم انتفاء المساواة بين النوعين أو بين أفراد النوعين بالطريق الأولى ، وهذه نتيجة لا يمكن الوصول اليها مع زيادة (لا) (٦٦) .

«تـــــــعقيب»

١ ــ هكذا مر بعض المفسرين بالآية مرورا لا ذكر فيه للحرف (لا)، وذهب آخرون الى مثل ما ذهبوا اليه فى الآية السابقة ، والتعقيب هنا لا يختلف عن التعقيب هناك .

٢ ــ والذى أرجحه ــ والله أعلم ــ ان فى الكلام حذفا يدل عليه

---

(٦٥) تفســـير أبى السعود ٧ / ٦٣١ .

(٦٦) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين .

السياق ، وبغير هذا الحذف يكون التعبير هكذا : وما يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين كفروا وعملوا السيئات ، ولا الذين كفروا وعملوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

أى ان المؤمنين لا يشبهون الكفار فى ضلالهم وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم والعذاب المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالكفار ، وكذلك لا يشبه الكفار المؤمنين فى اهتدائهم وصواب عقائدهم وطيب أعمالهم واستحقاقهم ثواب الله المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالمؤمنين .

ومن هذا يتبين أن فى الآية محذوفا دل عليه الكلام الباقى وأغنى عنه .

« الآية الثالثة »

قال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٦٧) .

١ ـ قال الطبرى ان (لا) مكررة ، وذكر أن بعض نحويى البصرة رأى أنها زائدة للتوكيد (٦٨) .

٢ ـ وذكر الزمخشرى أن (لا) مزيدة ، أو أصلية للدلالة على أن كلا من الحسنة والسيئة متفاوتة فى نفسها (٦٩) .

٣ ـ وقال القرطبى نقلا عن الفراء ان (لا) صلة زائدة (٧٠) .

٤ ـ وذكر النيسابورى أنها زائدة لتوكيد نفى الاستواء (٧١) .

---

(٦٧) سورة فصلت ٣٤ .
(٦٨) تفسير الطبرى ٢٤ / ٧٤ .
(٦٩) الكشاف ٣ / ٣٩٢ .
(٧٠) تفسير القرطبى ١٥ / ٣٦١ .
(٧١) على هامش الطبرى ٢٥ / ١٠ .

٥ ــ وذكر أبو حيان الاندلسى أنها اما زائدة واما أصلية دلت على أن الحسنات مختلفات وأن السيئات مختلفات أيضا (٧٢) .

٦ ــ أما ابن كثير فلم يذكر شيئا (٧٣) .

٧ ــ وأما الزركشى فقال ان (لا) تزاد مع الواو بعد النفى كما فى هذه الآية ، وقال أيضا انها دخلت فى السيئة لتحقق أنه لا تساوى الحسنة السيئة ولا السيئة الحسنة ، وقيل أنها ليست زائدة لأن جنس الحسنة لا يستوى أفراده وجنس السيئة لا يستوى أفراده ، وهو الظاهر من سياق الآية (٧٤) .

٨ ــ وارتضى المرحوم الدكتور عبد الرحمن تاج ما ارتضاه فى الآيتين السابقتين وهو أن المراد نفى استواء أفراد الحسنة ثم نفى استواء أفراد السيئة ، فثبت بطريق الأولى عدم التساوى بين الحسنة والسيئة (٧٥) .

« تعقيب »

١ ــ تبين أن الآراء التى قيلت هنا لا تختلف عما قيل فى الآيتين السابقتين ، فلا حاجة الى مناقشة ، لأن المناقشة السابقة تغنى .

واذا كان من الحق أن الحسنات متفاوتة القدر والأثر والمثوبة وأن السيئات مختلفة الجرم والضرر والعقوبة ، ولهذا جاءت (لا) أصيلة لنفى المساواة بين أفراد ما بعدها ، اذا كان هذا حقا فانه لا يناسب ما تتوخاه الآية الكريمة من تبيين الفرق الجسيم بين الخير والشر ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الإحسان والإساءة ، تمهيدا للأمر بالحلم والصبر

---

(٧٢) البحر المحيط ٧ / ٤٩٨ .
(٧٣) تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٠ .
(٧٤) البرهان وعلوم القرآن ٣ / ٧٨ و ٤ / ٣٥٧ .
(٧٥) البحوث والمحاضرات للدورة الثالثة والثلاثين .

والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة فى قوله تعالى : « وما يلقـاها الا الذين صبروا وما يلقّاها الا ذو حظ عظيم » ، لأن هذه المقابلة تستل سخائم النفوس ، وتلين القلوب ، وتغرس المودة ، وتوثق صلة الفرد بالفرد وصلة المجموع بالمجموع .

٢ ــ فأرجح ــ والله أعلم ــ ان فى الكلام محذوفا ، لأن أصله : ولا تستوى الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة ، أى لا تستوى الحسنة والسيئة فى شرور السيئة وأذاها وإشعالها للضغن والعداء والانتقام ، ولا تستوى السيئة والحسنة فى محامد الحسنة وطيب آثارها وتأليفها قلوب الأفراد والجماعات .

ولا شك أن التعبير بهذه الصورة يتضمن أيضا توكيدا لنفى التساوى بين الحسنة والسيئة ، سواء أكان المقصود محامد الحسنة أم مخازى السيئة أم بيان الفروق العظيمة بينهما كما سبق فى الآية الأولى .